

جمالية السرد في نظم لسان الدين بن الخطيب الأندلسي

The beauty of narration according to lissane eddine ibn al-khatib

الباحث: خليفى حاج أحمد hadjahmedkhelifi@yahoo.fr

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة أحمد بن بلة 1 - وهران

المشرف: أ.د حسن بن مالك Benmalek61@yahoo.fr

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة أحمد بن بلة 1 - وهران

تاريخ النشر: 2020/08/13

تاريخ القبول: 2020/02/24

تاريخ الاستلام: 2020/01/21

ملخص:

يتحدث النص عن جمالية السرد عند لسان الدين بن الخطيب التي تمثل أعلى درجات الأسلوب تجعل شعره يلاءم اللغة والمعنى والصورة ونفس المتلقي، وأغلب هذه الحالات لا تتأتى إلا باللغة الفنية ذات الذوق الحقيقي، فهو يبحث عن اللغة الفنية الإنسانية التي ينتقي فيها حالاته الشعورية في إطار فني عميق يمس جوانب النفس الراقية ويلمح من بعيد إلى الرؤى التي يتمحور حولها النص الحقيقي. كلمات مفتاحية: جمالية / السرد / لسان / نظم / بن الخطيب.

Abstract:

The current text about the beauty of narration according to lissane Eddine ibn al-khatib, which represents a high level of style and makes his poetic writing, corresponds to the language, the sense, the image, and the recipient, s breath. Most of this case are the result of exclusively artistic language of a genuine taste. Thus, he seeks human artistic language in which he selects his sentimental (emotional) condition in a deep artistic from that digs into the corners of the elegant spirit and hints from afar at visions that areal text revolves around.

Keywords: Beauty-Narration-According - lissan Din ibn al-Khatib

الباحث : خليفى حاج أحمد hadjahmedkhelifi@yahoo.fr

1. مقدمة:

تمثل جمالية السرد نمطاً آلياً في مقارنة النصوص القديمة، حيث أن قيمته أصبحت مؤسسة ضمن نظريات دراسة الشعر الحديث، والحق أن مثل هذا الرأي يقوم على خطأ راجع في النقد الأدبي ردحا من الزمن، ثم ذهب سدى، والعكس صحيح، فالسرد بالنسبة لهذه الدراسة له ما يتطلبه، فشعر لسان الدين ابن الخطيب بالرغم من مظاهر البيان والبديع التي يركز عليها شعره لا يجوز في هذه الحالة تناوله عن معزل من الدراسة السردية، إذ أن المتن الشعري غالبا ما يفرض للدراسة اتجاها يتحسس مواطن الجمال فيه: "التي يخضع لها الرصيد اللغوي ونظم المادة اللغوية واعتماد الخطاب على الطاقة الإيجابية"¹، ولا سيما إذا كانت هذه الدراسة قد استنبطت نظرياتها من نفس الدراسة التي قد تنشأ في ظل ذلك الاتجاه وتشكل على أساسه، وذلك ما نراه قائما بالنسبة لشعر لسان الدين ابن الخطيب الذي صور حياته أصدق تصوير منذ شبابه إلى فترات اعتلائه الوزارة، فهو وزير يعرف كل القيود الاجتماعية التي سادت العصر الغرناطي ومطلع على كل الظروف السياسية التي عاشها آنذاك، وسائر كل دواليب حكم بني الأحمر من أصحاب الجاه والسلطين والنفوذ من الحكام والأمراء والملوك والعلماء والفقهاء والقضاة وغيرهم، ولم يكن بمنأى عن الواقع الذي عايشه، لهذا كان يترجم نظريته بشاعريته الخاصة وحكيه الخاص فكان له قاموسه المتميز ينقل فيه أفكاره، وأحاسيسه، يسجل آلامه وآماله، يذكر أيام سعوده، ساعات بؤسه وتعبه، فكانت لكل المراحل لغة خاصة، لهذا أكد أغلب النقاد الغربيين أمثال سبترز: "على أن الأسلوب يبرز كتمارسة عملية لأدوات اللغة، بذلك فهو ينفي عنها صفة العفوية والجنانية"²، فالسرد يتجلى في النص بشكل يجعل عدم الالتفات إليه نوعا من التعسف والتجني على النص، لهذا فإنه من واجب الباحث كما يقول ماروزو "أن يتخذ موقفا مما تعرضه عليه اللغة من شتى الوسائل التعبيرية التي من خلالها يرى الواقع"³، هذا بالإضافة إلى أن الكثير من قواعد السردية ومقولاتها تحمل جذور نظريات البلاغة القديمة في نظرية الشعر، ولا تكاد تختلف عنها إلا في التسميات والمصطلحات، ونشير إلى أننا في هذا المقام سنهتم بما يوفره السرد من جمالية في الوصف، الذي يتجلى في اللفظ والمعنى، والصورة الشعرية والإيحاء. فقد تجاوزت عناصر السرد في نظم لسان الدين بن الخطيب طورا أكثر منهجية، الذي يرفض الاعتماد على المنهج الواحد في التحليل السردى، ووفقا لما تقررته الدراسات التي تتناول النصوص تناولنا مباشرة تبعا للمنهج الذي نراه يحقق الغاية المنشودة. ويحصل محمد الهادي الطرابلسي منهجه بقوله: "إذا تأملنا ما تجمع لدينا من أفكار في مقومات

الأسلوب لاحظنا أنهما تستقطبها ثلاث نواحٍ كل ناحية تمثل زاوية نظر العرب من خلالها إلى هذه المقومات، فالزاوية الكيفية التي يتجلى فيها الأسلوب تجاوزا للقاعدة اللغوية، والزاوية الكمية التي يقوم فيها الأسلوب على الاختيار من الرصيد اللغوي، والزاوية الوظيفية التي يكون الأسلوب من خلالها في مستوى الإيحاء لا في مستوى الأخبار⁴، فإن طبيعة النص هاهنا كما نعتقد هو الذي سيحدد الآلية التي تستسير عليها عملية الإجراء، وبما أن المجموعة المختارة قيد الدراسة هي مجموعة من النصوص وقع عليها الاصطفاء تبعاً للغرض والتي سنركز فيها على البنيات السردية في دراستنا وما يمكن أن تولده من إحساس بلذة القراءة وجمالية السرد.

2. شعرية اللغة

1.2 جمالية أسلوب السرد الشعري:

يتجلى السرد من خلال جمالية أسلوبه الشعري مشكلاً صورا شعرية حملته ماديّات ومعتقدات، وروحيات، ورهنيات، تفتح باب القراءة التأويلية للنص الشعري، للوقوف على جمالية نصوص لسان الدين ابن الخطيب، مراعين الأدوات البلاغية في الإطار العام للنص لا في جزئياته التي تغرق النص. إن أول ما ينبغي انتباه الناقد إليه هو الصلة العميقة الفريدة في اختيار اللغة، بين بنية اللغة العربية وبنية شعرها، فليس الشعر العربي شعرا مختلفا عن بنية اللغة العربية، وليس فرعاً أو تطبيقاً عالياً لها. بل إنه من صميم الينبوع التجريبي الواقعي، والذي صدرت عنه اللغة العربية نفسها، وذلك أن السؤال عن طريقة اختيار الألفاظ وعن طريقة إبداع الشعر يؤديان إلى جواب واحد، هو أن الصوت المعبر عن توافق الوعي عند الإنسان العربي مع الظرف الحيوي الذي يؤلف لحظة القول لحظة الكلام، هو نفسه الذي ألف جذر الكلمة في اللغة، والذي تطور ليؤلف جذر التفعيلة في الوزن الشعري، ومن هنا جاء اعتبار اللغة العربية لغة عضوية، بمعنى أن جذور ألفاظها إنما هي رموز وصور وموسيقى، فهي لغة شاعرة لأنها بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها ألفاظ، وأوزان، وأصوات، لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت فيه، لو لم يكن من كلام الشعراء.

وإذا كان الشعر يعبر بواسطة أدوات فنية من صور ورموز وموسيقى، فإن اللغة أداة فنية ذات دور مهم، لأنها تقوم بوظيفة أساسية في العمل الشعري، فإن اللغة أداة لتلك الأدوات الفنية المتعددة، فعن طريقها تكون الصورة والرمز والموسيقى، ومن جهة أخرى أداة فنية مستقلة في تأثيرها وتأثيرها، وذلك باعتبارها مجموعة ألفاظ تحمل خصائص يمكن أن تتغير من شعر لآخر في مصدرها المستقاة منه، وفي درجة قوة معانيها، وفي تجاوزها أي في التراكم مما يؤدي إلى ما يسمى بالأسلوب.

2.2 جمالية اللغة والتلقي:

فاللغة إذا هي عبارة عن دلالات تحمل في طياتها أفكار ورؤى الشاعر عند اختياره لها، تترك أثرها الجمالي على الشاعر والمتلقي على سواء، وبالتالي فإن لغة الشعر هي لغة غير عادية يتم اختيارها وانتقاؤها بعناية كبيرة لأنه في نظامها ونسقها تختلف تماما عن اللغة العادية.

فالشعر مهما توسعنا أو أوجزنا في تعاريفه هو كلمة في الأخير، التي يجب أن تلفظ بشكل صحيح، ويجد السامع لها راحة وموسيقى وجمال، ولعل أهمية اختيار اللغة هي التي جعلت **ملارميه** يخاطب صديقا له بقوله " الشعر يا صديقي لا يصنع من الأفكار، وإنما يصنع من اللغة"⁵، فالشعر هو صناعة وصياغة وضرب من النسيج واختيار من الرصيد اللغوي، وجنس من التصوير، يأتي كما قال الجاحظ " في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك"⁶، فتخير اللفظ أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب.

وحق يتحقق هذا التأني المنشود فإن الأمر يتطلب جودة الرؤية، وتمام الوضوح الذي ينشأ عن حسن اختيار اللغة التي تكون أداة لنقل المشاعر والأفكار ويعبر عنها "بفن الكلام، يكون قصصا أو حوارا، تشبيها، تقريراً أو حكما أو أمثالا"⁷

يقول بن الخطيب:

طرفك في الفخر بعيد المدى وطرفك للمجد شديد الطموح⁸

ويقصد هاهنا «بالطرف» النسب أو الشجرة التي ينتمي إليها الممدوح ويقول كذلك:

والروض يرفل في أثوابه الجدد والسحب تبكي وثمر الزهر مبتسم⁹

ويقصد به هنا "الروض" من ناحية الدلالة النفسية خيرك متعدد ومتنوع. ويقول:

وهب نسيم الروض في روضة الرضا بليلا وأكواس السرور تدور¹⁰

ويقصد بالروض الراحة وما تحمله من أنفاس تبعث على السرور.

فلقد تعامل لسان الدين ابن الخطيب مع اختياراته الشعرية بشكل مختلف، بشكل ينبذ ما كان سائدا من قبل، ذلك عندما كان المعطى اللفظي هو المستهدف، أما هنا حالة تختلف تماما تتطلب

الوقوف على اختيارات من أعماق النص، من أجل فهم واستيعاب المعنى المقصود الذي يتوالد نتيجة واردات ومكابدات كان يعينها ابن الخطيب من خلال تجربته في الاختيار. لذلك كانت دقة الصياغة في العمل الأدبي شرطا ضروريا، تتوقف على مدى اختيار اللغة بوصفها مادة بناء النص الأساسية، التي بدورها تسهم في تشكيل تراكيب تحمل في طياتها دلالات معينة.

يقول ابن الخطيب:

فلا تعجبن للحبر إن حال لونه فوجهك يجلو غرة الليل والحبر¹¹

-الحبر: هو اللون والهئية ومعناه الخاص هو الجمال والبهاء

يرى الجاحظ (ت255هـ) أن ألفاظ الشاعر ينبغي أن تحقق قدرا من التوافق والاختيار، وعدّ ذلك أساسا من أسس الجودة الشعرية، ويقول في ذلك: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان"¹² ولعل كلام الجاحظ عن الإفراغ يقصد به الاختيار وانتقاء اللفظ، وهذه الفكرة أخذت نصيبها الواسع عندما قال: "...والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي، والعربي، والبدوي، والقروي، والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة، وضرب من النسخ، وجنس من التصوير"¹³

وتخترق الارجا من طيب ذكره جنادب تحدوها الصبا والجنائب¹⁴

-الأرج: الرائحة الطيبة ومعنى الخاص تعني بسمعة

وباعتبار الكلمة هي البنية الأساس في أي عمل كان، قصد الإبانة عن الأغراض والمقاصد التي في النفوس، فقد اهتم النقاد كما سبق أن قلنا بتخيّر اللفظة، ووضعوا لها شروطا عدة تكسبها جمالا ورونقا، وتأثرا في النفوس، لذلك أشار قدامة بن جعفر إلى اللفظ فقال: "أن يكون سمحا، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة، مع خلو البشاعة"¹⁵، ولعل توزيع الوحدات الإيقاعية في البيتين القادمين يكون أكثر عمقا في اختيار وتجسيد التلاحم بين البنية الإيقاعية والبنية الدلالية من حدوثها المجرد وتشتتها في كامل القصيدة، إذ يظهر التحليل أن الوحدات الإيقاعية تختار وتتوزع في تجمعات استقطاب بارزة تسيطر على جزء معين من النسيج اللغوي دون جزء آخر.

وفي الوحدات الأخرى المتبقية تبرز ظاهرة سابقة وهي بشكل غالب طغيان الوحدات الإيقاعية

الدالة على الحركة.

صرعى على غفر الرمال وليمة

للحوت أو للطير أو للضيغم

ناديت والحفلاء غير عجيبة

هذا الصنيع لمثل ذاك الموسم¹⁶

وهكذا يتجلى لنا تحليل اختيار وتوزيع الوحدات الإيقاعية ضمن المقطع الواحد من خلال طبيعة التكاثف والتجميع والدلالة العميقة للبنية الدلالية، وجلاء تتيحه دراسة العروض بأساليبها التقليدية وتتجسد في البنية الإيقاعية الثنائية المتوازية، البارزة في البنية الدلالية للحركية المنتصرة للممدوح والسكونية المطمئنة النابعة من الأنا.

كما أفاض في هذه الشروط للفظة المختارة الفصيحة صاحب سر الفصاحة الذي فصل بقول: "... في صفات الحروف الجهرية، والمهموسة، والرخوة والشديدة، مشيراً إلى وقع الألفاظ على الأسماع، من جهة وعرقها وابتدالها وحالاتها المختلفة الأخرى، التي تقتضي في معايير حسن اللفظ ألا تكون الكلمة - أيضاً عامية مبتذلة ولا وحشية غريبة وغير مألوفة الاستعمال".¹⁷ فالعامل باختيار اللغة بقدرة ومهارة وتصرف فيها إلى حد امتلاك زمامها بحيث تصبح عجيبة طبيعية قابلة للخلق والتشكل، هي موهبة الشاعر الأساسي، ولعل الشعراء أدركوا هذه الحقيقة.

3. جمالية النثر في نظم لسان الدين بن الخطيب:

أشار النقد القديم إلى قضية جمالية الأسلوب، التي تتطلب الدقة في كيفية اختيار لغة الشعر من لغة النثر: "إن الألفاظ ملك لجميع الناس، وهي تستخدم في كل فن من الفنون الأدبية ولكن كل فن يستخدمها بطريقته الخاصة، فاللغة في الشعر الناجح تبدو تركيبية، في حين أنها في النثر تحليلية ذلك أن التركيب عملية يقتضيها العمل الشعري، في حين أن التحليل تقتضيه الكتابة النثرية"¹⁷، ومن ألفاظ الجزالة الرقيقة قوله:

وليلة أنس باح مني بما الهوى فهزت لترجع النقيط المناكب¹⁸

وقوله:

لعمرى لئن هاجت عزائمك العدا كما بحث عن حبها ربة ظلف

وارثهم حرب السجال وقلما يدلغور القوم الا على الحنف

فقد آن أخذ الديم منهم بأرهم ما كان جفن الدهر في مثلها يغفي¹⁹

ومن ألفاظ الأشواق:

أعاتب دهرًا لا يصيح على عتب واسأله صفحا ومالي من ذنب

وأعلن بالشكوى إلى غير راحم فأشكوا وقد عزى العزاء إلى ربي²⁰

وإذا كانت اللفظة تحمل جرسا قويا من الناحية الصوتية، فإن هذه الصفة نفسها تصدق عليها من ناحية المعنى، فالفاظه بصورة عامة فخمة قوية تحمل من معاني القوة والحدة من جميع وجوها، ومن صلابة اختيار اللغة مثال ما قاله لسان الدين ابن الخطيب عندما غادر الأندلس يصف العصبية التي طردته:

وعصبة من شر اليهود لقيتها يجانبها داعي الهدى ويحشيها

إذا أمنوا وأستوثقوا الباب أعلنوا خبائث ما كان اللسان ليفشيها

كأن رؤوس القوم عند صلاتهم وقد أومت للأرض صفر شواشيها

أقاح أمالتها الرياح عن الثرى وقد أسقطت عنها البياض حواشيها²¹

ومن تضامن وتأزر اللغة المختارة في مدح الغني بالله:

قسما بالليل وماوسقا وأيات البدر إذا اتسقا

والنجم الثاقب أين هوى راجها والصبح إذا انفلقا

وبالنور الطور وقد اضحى موصل لجلالته صعقا

لمخائيل ملكك تخبرني أن تأييد لها خلقا

أحييت الدين وقد أود وأعدت الملك وقد خلقا

يا ناصر دين الله ومن بعنايته الوثقى الوثقى²²

ومن اختيار الألفاظ الصلبة الصامدة التي تتناول وحدة وتلاحم وتراحم جيوش الغني بالله قوله:

إخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر ان يطفأ

فإذا بلغ الماء الزبي فـتـداركـوا فقد بسط الدين الخفيف لكم كفا²³

وهكذا يتبين لنا أن معاني الألفاظ عند لسان الدين ابن الخطيب قوية فخمة، جرسها صاحب يأسر الأسماع، لا مكان فيه للرفق والليونة والضعف. وهو ما يطلعه علينا ابن الرشيقي إلى قضيتين نقديتين: إحداها لغة الشعر ولغة النشر، والأخرى استعمال كلمات ومصطلحات خارجة عن موضوع القصيدة كالألفاظ الغريبة والأعجمية وغيرها بقدر ولأسباب لا تخرج عن المألوف والتلميح، ففي القضية الأولى

لا يكاد يتضح مراد ابن الرشيقي بالألفاظ المعروفة والأمثلة المألوفة التي ينبغي للشاعر أن يعدوها، هل هي ألفاظ المتقدمين في قصائدهم وشعرهم أم هي شئ آخر، والأغلب بل الأرجح أن صحّ لدى النقاد القدماء أنه ثمة ألفاظ تصلح للشعر ولا تصلح للنثر والعكس، فقد كان دعبيل الخزاعي يعيب شعر أبي تمام، ويقول: " ما جعله الله من الشعراء بل شعره بالخطب الكلام المنثور أشبه منه بالشعر"²⁴.

وإذا كان النقاد يتفقون على ضرورة امتلاك هؤلاء الآخرين القدرة اللغوية الخارقة لأنهم يختلفون في كيفية عملها لتشكيل العمل الشعري أو لولادة قصيدة، فمنهم من يرجع ذلك إلى دأب الشاعر على تنقيح لغته واختيار ألفاظه " فكل شئ في الشعر جهد، وقد يستمر الجهد في النظم أياما وأسابيع أو سنين"²⁵، ويذهب آخرون إلى أن الشاعر يحول النثر إلى شعر فيقع على اللفظة المناسبة دون شعور ودون البحث عنها، فالتجربة المعيشية هي التي توحى للشاعر بالألفاظ التي ينظم من خلالها دون أن يتدخل الشاعر شعوريا وإراديا في الاختيار " فالشاعر الحقيقي لا طاقة له على اختيار اللفظة التي هي جزء من شعور لا يتجزء"²⁶.

1.3 جمالية العدول في شعر لسان الدين بن الخطيب:

يتخذ لسان الدين ابن الخطيب ميزة العدول والإيحاء، وفي هذ الملمح يؤكد الشاعر كون الفارق بين الشعر وسائر ضروب الكلام إنما يكمن في اللغة، وفي مقدار عدولها عن المشهور المتداول معيدا إلى الذهن تأكيدات البلاغيين والنقاد أن المجاز إذا كثر تداوله أصبح مع مرور الأيام حقيقة، وأن التشبيه مثلاً حين يكثر علك الألسنة له يفقد جماله ورونقه حتى يضحى المشبه والمشبّه به عين الشيء، مثل تشبيه الوجه بالقمر وكذلك الرغبة والدينار بالشمس، ومثل ذلك ما رأوه في باب السرقات من أن السرقة لا تثبت إلا فيما كان فذاً خاصاً متميّزاً كتشبيه عنتره بالذباب، وتشبيه ابن المعتز لهلال العيد، إلا فما لم تثبت له صفة الاختصاص والتميّز فلا سرقة فيه.

يقول الشاعر:

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الجود والإقداما²⁷

فالنفس لفظ مشترك يقال على أشياء كما يقال العين على الذهب والماء وهي في لسان حقيقة الشيء وعين ذاته تقول "جاءني زيد نفسه"، وفي استعمال الرمزي دلالة على مجموع الصفات الذميمة ولذلك قالوا: جهاد النفس وفي الحديث النبوي: "أعدى عدوّ نفسك التي بين جنبيك"

وتشبيه القضية هنا أن تكون انزياحا لغوياً ودلاليا في لغة الشعر والكثافة والإيجاء في مصطلحات النقد الحديث.

وإذا كان هذا هو رأيه، فهو على أي حال رأي نقدي قد يصح وقد يخالفه الصواب، وليس مهما أن نناقش الشاعر في هذا الفصل، وإنما المهم أن نعلم إلى نماذج من شعره نتناول فيها لغته بالتحليل والدراسة لننتهي إلى رأي فيها، وفي أسلوبه بصفة عامة، فالشاعر وهو يصف أو يفتخر أو يتغزل، فإنما يعبر بلغته الكلامية الفنية عما يساور نفسه من انفعالات، ويعتصر قلبه من عواطف، قد تكون طبيعتها قوية أو ضعيفة يتبعها في ذلك اختلاف مظاهر جسم الإنسان وفي نفسه " والأسلوب نفسه يختلف باختلاف معناه الوجداني، فالبارة التي تصور الغضب أو السخط أقوى من تلك التي تعبر عن الحزن، أو الخوف أو الخذلان"²⁸، فالاختلاف في الأسلوب الشعري هو الذي يظهر جليا على مستوى الكلمات، والصور والتراكيب والعبارات، مع الطيف الموسيقي العام حسب أحمد الشايب²⁹.

يقول بيفون: "إن الأسلوب هو الرجل"³⁰، أو هو من الرجل نفسه الذي يدل على شخصيته مثل طريقته في الحديث. وبناء على ذلك فلكل شاعر أسلوبه الخاص في التعبير، وفي مضمون الموضوعات نجد أن لسان الدين ابن الخطيب يتمتع بأسلوب خاص، والظاهر أنه كان شغوفا إلى حد بعيد بتلك الفنون البلاغية التي تضمنها أسلوبه، وهو أسلوب سار عليه من عاصره في ذلك القرن، ولست أدري مدى تأثير الفتح بن خاقان في كتابه فلائد القيعان في ابن الخطيب والذي ذكر أنه كان يظهر براعة في أسلوبه وطريقة انزياحه للألفاظ بما فيها من صيغ بلاغية وأسلوب أخاذ سهل مستساغ للقارئ، دون أن يجعله مثقلا بالمعلومات التاريخية، والأحداث الأخرى التي تجعل النص جافا بعيدا عن الأسلوب الأدبي.

وإذا كان لسان الدين يقصد إلى ذلك الانتفاء قصدا، فإن الألفاظ العربية ذاتها لا تقبل بينها لفظا أعجميا إلا إذا صقل بصقالها واتسم بطابعها، وكأنها حبات عقد ثمين لا تقبل في سلكها جوهر غريبا إلا إذا صقل بصقالها، وذلك هو شأن اللغة العربية حتى يومنا هذا.

2.3 جمالية التناسق القرآني:

يشكل التناسق القرآني في شعر لسان الدين ابن الخطيب أحد الملامح التي ميزت خطابه الشعري إذ يظهر جليا تأثره بالكتاب الله جل جلاله إلى حد بعيد يغلب عليه اللفظ القرآني، وأول ما يلفت نظرنا ذلك التأثير الديني على تراكيبه الشعرية إذ أن الثقافة الدينية المتغلغلة في كيانه، كآنها أثر كبير في

توجيه لغته الشعرية، فقاموسه الشعري يحتوي على الكثير من المصطلحات الفقهية والمعاني القرآنية، فمن الاختيار اللفظي لآيات القرآن الكريم قول ابن الخطيب:

ونادى لسان الفتح في عرصاتهم كذلك مكنا ليوسف في الأرض³¹

فالمسطر الأخير هو من قوله تعالى: " وكذلك مكنا ليوسف في الأرض وعلمناه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون". الآية 56 سورة يوسف. فالآية الكريمة تحكم بتمكين الوزير عماد الدولة أبي عبد الله في بعض ما فتح الله عليه، فإن الشاعر اختار معنى التمكين لشيء هو في الحقيقة كان شيء محتوما، ولكن الشاعر لم يتوقف عند استلهم الآية لمعناها بل اختار الألفاظ لتكون أكثر تأثيرا وقناعة دون أن يؤدي ذلك إلى أي خلخلة في معنى البيت، بل نستطيع أن نزعم أن من لا يحفظ القرآن ويختار ألفاظه لا يمكنه إهداء مقصود البيت وإقناع القارئ، حتى تجد هذه اللغة وكأنتها في الذهن، فهذه اللغة تحمل في طياتها أفكار ورؤى الشاعر بطريقة تترك أثرها على الشاعر والمتلقي على

فمن خلال القاموس الشعري لابن الخطيب نلتهمس ثقافته ورؤيته الشعرية من خلال اختياره للغة، وكيف أن لغته قد بلغت شأوا عظيما عكس الصور التراثية والأندلسية على السواء. وفي قصيدة أخرى، وفي الموضوع نفسه قوله:

الطاعنون الخيل يوم المنتقى والمطعمون إذا عدت شهباء

سيماهم التقوى أشداء على الكفار فيما بينهم رحماء³²

والواضح أن البيت الثاني مستوحى من قوله تعالى: " سيماهم في وجوههم من أثر السجود" الآية 29 سورة الفرقان، وقوله تعالى: " أشداء على الكفار رحماء بينهم" الآية 29 سورة الأحقاف. والشاعر لم يكتف بمعنى الآية بالتوجيه، وإنما عمّد إلى شيء من لفظها فعبّر به عن الفكرة، فلسان الدين ابن الخطيب يريد أن يصور عظمة المعركة من خلال استحضاره الحالة المعنوية التي عليها جيوش الغني بالله، بتكثيف اللفظ القرآني أيضاً في حديثه عن الواقع بالذات، ففي المقطوعة اختيار لكثير من اللفظ لتلك الواقعة، بل إن بيتا كاملا عبارة عن جملة قرآنية محضة.

ولعل الشيء الذي جعلنا نتعرض لهذه الخاصية هو توافر الجانب اللغوي القرآني فيه والذي يعتبر شرطا أساسيا، وقد صرفنا النظر عن كون الشاعر قد شكل مما اختاره من القرآن "مضمونيا "

صورة شعرية (الشرط الأساسي للرمز)، أو اكتفى من ذلك من صورة مجردة بشكل مباشر، إذ لا قيمة لكل ذلك في هذه الدراسة، بل التركيز هنا على الجانب اللغوي.

4. جمالية الصورة الشعرية عند لسان الدين بن الخطيب:

لا نجد في ديوان لسان الدين ابن الخطيب مفردات ذات لغة نظرية عادية، بل نجد في ديوانه موسوعة تشمل اللغة الشعرية ترد في مختلف أبيات شعره ونستطيع بلورة معالم هذه اللغة، وإظهار ما لها من مكانة وأهمية في شعره:

إن اللغة الشعرية عند لسان الدين ابن الخطيب هي لغة المجاز والاستعارة والكناية، لغة الروح، لغة الحس الوجداني يتوقف لسان الدين ابن الخطيب عند وصف هذه اللغة، وتحديد الجهة التي يعبر عنها، من ذلك الاستعارة حيث يقول لسان الدين ابن الخطيب وهو يمدح السلطان الغني بالله:

بدرا وما غير الخلافة هالة شمس وما غير العلاء مدار

غيث وما غير النوال سحابة ليثا وما غير الظبا أظفار³³

فقد قامت الاستعارة في البيتين السابقين وهي: (البدر، والشمس، والغيث، والليث) على مشاهة الممدوح ما في صفة الوضاعة والمزلة والشرف، والشجاعة، فالعلاقة بين حدي الاستعارة على حد قولهم: "وسيلة لغوية لوصف بعض المماثلات الموجودة قبلها بين شيئين في العالم"³⁴.

بـاختيار شعره نابع من مقومات تتمثل في المعاني والمباني والأساليب والأغراض ولغة الوحي، لهذا جاء أغلب شعره مدحي حماسي صوفي، غير أن لغته ليست إلا أصداً لأصوات الماضي وأشباح لألوانها وأشكالها، وغرض الحماسة أضفى بالجديد على لغة لسان الدين ابن الخطيب وجعل منها لغة شعرية جديدة في زمنه. يقول لسان الدين ابن الخطيب وهو يمدح السلطان المغرب أبو يحيى:

بشرى يا قوم لها الزمان خطيباً وتأرج الأفاق منها طيباً

هذا طلوع فتحوك الغرائيم كان طالع سعدا ليغيا

أظهرت دين الله في ثغر العدا وقهرت تمثالا به وصليبا³⁵

فالشاعر جمع في مبانيه ومعانيه بين مدح أبي يحيى (طلوع فتوحك) وبين حماسة (بشرى يا قوم) وبين الدين (أظهرت دين الله) و(قهرت تمثالا).

جـ- التوقف عند الكلمة وجعلها أداة رائعة في حمل المعاني وصياغتها، " لأنها الوحيدة التي يمكن تحميلها المعاني والموسيقى والصورة والتمثال"³⁶.

فلسان الدين ابن الخطيب يتعامل مع اللغة ببراعة في انتقاء اللفظ لمواضعه وفي سبك الحمل بحيث تبلغ المعنى بقوة ونصاعة وإتقان يقول لسان الدين ابن الخطيب:

هي أسعد ما دوَّهن حجاب لا ينقضي عد لها وحساب
وبشائر تصل النفوس كأنما بين النفس ——— وس وبينها أنساب
تأتي على قدر فيخلف بعضها كما خلف السحاب سحاب
أما الفتوح فقد تجلّى واضح من صبحها الأجلّي وباب فاتح باب³⁷

فاللغة الشعرية هنا هي الكلمة، ولا يقوم لها أي أساس من الاختيار إلا بعد توفر الابتكار في الصور والموسيقى والأفكار والصيغ التعبيرية.

د- التميز بين لغة الشعر ولغة النثر عند لسان الدين ابن الخطيب، وبالتالي التميز بين الألفاظ الشعرية وغير الشعرية، ويتبلور هذا الاختلاف في قوة البيان وسر التراكيب " لأن الشعر يتزل مرتديا ثوبه بالكامل"³⁸ بينما خطابه الثري يشوبه الغموض والتعقيد لكنه يتسم بالموضوعية والواقعية والدقة والتحدّي، فهي تشبه المقامة إلى حد بعيد، خاصة مما اقتضت عليه رسائله من رحلات ومشاهدات ورسائل ديوانية، ويراها محمد عنان " مقامات من الطراز الأصيل الذي نجده عنده أساطين ذلك الفن"³⁹.

هـ - دقة التصوير: فالشاعر يختار لغته بدلالاتها المعجمية الدقيقة، فكل لفظ مختار لأداء مدلوله اللغوي الذي وضع فيه، ولا نلاحظ من الشاعر اضطراب إلى استعمال بعض الألفاظ لمعان لم توضع - بصورة دقيقة لها مما يربط القارئ يلجئ الشاعر إلى تذليل قصائده بالإطناب في قوله:

أنور سناء لاح في مشرق الغرب وفرح اعتلاء لاح في دوحة العرب
ووارث أعلام العلا نشب من ندى وموقد نور بشر في ظلم الكرب⁴⁰

ولا نعني بهذا أن اللغة عند لسان الدين ابن الخطيب غير موحية، وبالتالي غير شاعرية، فثمة فرق واضح بين اختيار اللفظة بإيحاءات عديدة يثتها الشاعر، وبين اختيارها لتأدية المعاني التي لم توضع لها بصور دقيقة، أو لتأدية معناها الدلالي، لكن بصورة مشوقة، فاختيار اللفظة الموحية يعني تأدية معاني يثتها الشاعر، بالإضافة إلى معناه اللغوي الدلالي، وبعبارة أخرى، فاختيار اللفظة الموحية لا يحوز على معنى

اللفظة الدلالي، ولا يجردها منه، بل يحققه مضيفا إليه معانٍ لا تحملها دلاليا بل سياقيا، بينما اختبار اللغة غير الدقيق يعني استخدامها في سياقات لا تفي فيها حتى بمعناها المعجمي، فضلا عن حملها لشحنات إيجابية أخرى.

ومنه دقته في اختيار اللفظة الموحية، ومنهجه في التسلسل وربط المعاني ببعضها البعض:

خطب ألم فأذهب الأخ والأبا رغم لأنف شاء ذلك أو أبا
قدر درج في الخلق لا يجد أمرؤ ما جرت مع المقادير مهرا⁴¹

ولعل السبب في دقة اختيار الصورة الشعرية عند لسان الدين ابن الخطيب يعود إلى سعة المعجم اللغوي عنده، بحيث يجد في اللفظ المختار لكل ما يريد أن يتناوله بالحديث من تجارب وأفكار، لأن الشاعر لا يختار صورة لغير معناها الدقيق إلا عندما يكون مصابا بنقص في معجمه اللغوي، وهو ما لا نجده عند لسان الدين ابن الخطيب، ومن الصعوبة. يمكن أن تأتي بأمثلة من شعره لتوضيح ما ذهب إليه، فكل شعره يصحّ شاهدا على هذه الظاهرة، فبعد تقصي ومراجعة أشعاره والذي حوي على 3000 بين مقطوعة وقصيدة، تراوحت بين الطول والقصر، وقفنا على أشعار تباينت من حيث المستوى، كما تباينت من حيث انتقاء الألفاظ المناسبة لمواقف معينة، والمتماشية مع حالات النفس غير القارّة التي تتحكم فيها الظروف السياسية وأخرى اجتماعية، أفرزت بدورها رؤى نقلتها صياغات منتقاة، للتعبير عن دلالات محددة.

5. إستنتاج:

يمكن القول من ناحية اللغة السردية أن لسان الدين ابن الخطيب على وجه العموم قد اختار ألفاظه العربية الخالصة بعيدا عن التوعّر، متسمة بالألفة والقرب من القلوب والعقول، من جهة، متأثرا بمتطلبات الحضارة من جهة أخرى، تلك الحضارة التي - وإن كانت قد أدت إلى تعقيد المعاني - فإنها قد دعت إلى تقريب اللفظ، وكان لسان الدين في صنيعه هذا متجاوزا مع من ينشدهم شعره من الخلفاء والوزراء والقواد والكتاب وكثيرا منهم من الموالي الذين وإن كانوا قد ثقفوا العربية فإنهم - أو فإن الكثير منهم من العرب الخالص - لا يعرفون الغريب ولا يستسيغون الحواشي من الألفاظ بالإضافة إلى الألفاظ الجافية الوعرة التي لا تتلاءم وتلك الرفاهية ونعيم الأندلسيين.

وقد وقفنا على جملة من الاستنتاجات تخص جمالية السرد عند لسان الدين ابن الخطيب تنبع من تصورات مختلفة والتي يرى فيها الأمور بشكل مختلف، وجمالية السرد تقع ضمن هذه الأمور. وقد يتبين موقف لسان الدين من هذا الاختيار عندما يجد لجمالية اللغة رؤية لها صلة بالوجود أو بالذات أو

الموضوع تفتقر إلى صورتين: صورة جمالية تهب للغة قيمة الحضور في حياة المعرفة والتجربة، وأخرى سردية تعطي قيمة للموضوع وتصبح اللغة هنا وسيلة للإبلاغ تلحق بسائر الوسائل التي تؤدي إلى المعنى إلى الصورة وإلى الممكن من المعاني والألفاظ والصور. فجمالية اللغة هي فلسفة خاصة و رؤية مختلفة بين مجمل الشعراء للكون والأشياء والإنسان، وهي بهذه الرؤية تخضع لتعميق النظرة من قبل الذوقيين والنقاد والشعراء الذين يؤمنون بالحدس والموهبة والتلقي والذات كمصادر معرفية يستحيل معها إخضاع مفرداتهم اللغوية للمرجعية اللغوية المعجمية، وإنما يتشكل لها قاموس خاص بها، فهي تركز على دور المصطلح الذي يختزل السرد ثم يحيلها إلى دلالات مبتكرة ومنفتحة تشترك فيها الكلمات، والمعاني، والصور، والرموز، مستمدة وجودها وشرعيتها من الجمالية التي تربطها باللغة العربية الأصيلة. ولكن بدلالات مرجعية خاصة لها علاقة مع ما يريده لسان الدين ابن الخطيب، على عكس انحصار العلاقة السردية بين المعنى في اللغة وبين المعنى في الخطاب الجمالي والتي لا تخرج عن دلالتها العقلية أو الطبيعية أو الوضعية.

الإحالات:

- ¹ عبد السلام المسدي، المقاييس الأسلوبية في النقد الأدبي من خلال البيان والتبيين، ص 155.
- ² عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، 1977، ص 70.
- ³ المصدر السابق، ص 70
- ⁴ محمد الهادي الطرابلسي، مظاهر التفكير في الأسلوب عند العرب، مركز الدراسات الاجتماعية والاقتصادية، تونس 1798، ص 255.
- ⁵ عادل فريجات، إضاءات في النقد الأدبي، ص 189.
- ⁶ الجاحظ، البيان والتبيين، ص 35.
- ⁷ أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة العربية المصرية - القاهرة - ط6، 1966، ص 41.
- ⁸ لسان الدين ابن الخطيب الديوان، ص 5
- ⁹ المصدر نفسه، ص 95.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص 116.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص 134.
- ¹² المصدر نفسه، ص 210.
- ¹³ الجاحظ أبو عثمان بن عمر بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخناجي، القاهرة، ج1، ص 67.
- ¹⁴ الجاحظ أبو عثمان بن عمرو بن بحر، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة، 1948، ج2، ص 131.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص 222.

- 16 نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى الخانجي، بالقاهرة، ط 3، 1978، ص 215.
- 17 نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى الخانجي، بالقاهرة، ط 3، 1978، ص 240.
- 18 ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط 1، 1981، ص 89.
- 19 عز الدين اسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، ط 8، 1983م، ص 99.
- 20 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 13.
- 21 المصدر السابق، ص 128.
- 22 المصدر نفسه، ص 245.
- 23 المصدر نفسه، ص 288.
- 24 المصدر نفسه، ص 274.
- 25 قراءة في ديوان أبي تمام محمد الصادق توفيق، الطبعة الثانية، ص 25.
- 26 عز الدين اسماعيل، الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، ط 8، 1983، ص 52.
- 27 المصدر نفسه، ص 63.
- 28 أحمد الشايب، الأسلوب، مكتبة النهضة العربية المصرية - القاهرة - ط 6، 1966، ص 36.
- 29 المصدر نفسه، ص 65.
- 30 المصدر نفسه، ص 67.
- 31 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 431.
- 32 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 54.
- 33 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 65.
- 34 الدكتور محمد الفتاح، مجهول البيان، الطبعة الأولى، دار البيضاء، بيروت، ص 367.
- 35 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 10.
- 36 رثيف الخوري، الأدب المسؤول، دار الآداب بيروت، 1968، ص 38.
- 37 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 12.
- 38 الياس أبو شبكة، مقدمة أفاعي فردوس، ص 15.
- 39 محمد عبد الله عنان، لسان الدين ابن الخطيب حياته وراثته الفني، ص 227.
- 40 لسان الدين ابن الخطيب، الديوان، ص 23.
- 41 المصدر السابق، ص 13.